الفصل الثالث

الزنـاد والشـرارة

I

في زمن التوراة؛ كانت قلعة الكرك العاصمة القديمة لمملكة المؤابيين. وما كانت بعيدةً كثيراً عن البلدة المعروفة باسم رابوث Rabboth والتي كانت معروفةً بينابيعها الثلاثة التي تَسقي حصنَها. لكنها كانت معروفةً أكثر بأنَّها المكان الذي حدثت فيه قصة الملك داود مع أوريا الحثّي.

كانت الكرك من موقعها ذاك تسيطر على طريق التجارة والحج، وتستطيع التصدي للجيوش التي تُحاولُ المرور بعُنُق الزجاجة ذاك. أما الحصن فكان مدينةً حقيقيةً مسوَّرة، مبنية على سبع تلال، مع حي علوي وآخر سفلي. وترتوي القلعةُ نفسُها من ثلاث عشرة بركة، وتحميها حاميةٌ مؤلَّفةٌ من ألف ومائتي جندي، تملك عدة أروقةٍ، واصطبلات، ومخازن، وثكنات، ودهاليز، ومعصرة شراب، ومطبخ له عدة مسارب، كما كان هناك سوقٌ للقلعة والحصن. وفي داخل أسوار الحصن الضخمة بُنيت مخازن للمؤن تستطيع إمداد المدينة بالغذاء لمدة سنةٍ كاملة. أعاد الصليبيون تشييد القلعة على القواعد

الرومانية القائمة، قبل خمسين سنة (من وصول صلاح الدِّين إلىٰ السلطة بمصر والشام). وقد كان البناءُ سريعاً بحيث لم يستغرق أكثر من ست سنين، وعلى أيدي عمّال محليين وعبيد. وظلَّ طِرازُ البناء بيزنطياً. أما النتوء الكبير للحصن من الجهة الجنوبية فقد أُحيط بسورٍ عالٍ له عدة شُرُفاتٍ تمكّنُ من المراقبة والدفاع. وهكذا صارت الكرك أفضل نماذج الهندسة العسكرية في القرن الثاني عشر. وقد كان موقع الحصن على رأس سفح يؤدي إلىٰ وادٍ يسير منخفضاً باتجاه البحر الميّت، مُمَكِّناً من السيطرة على كلّ المواصلات من البحر الميّت وإليه، في الوقت الذي يشرفُ فيه على الطريق المَلَكية الرومانية القديمة التي يتضاءل اتّساعُها بحيث تُصبح مضيقاً عند الوصول إلىٰ جانب القلعة والحصن.

وإلىٰ جانب الموقع الاستراتيجي للحصن؛ فإنّ المنحدرات الرأسية الشاهقة حمته من ثلاث جهات. أما الجهة الشرقية التي لا انحدارَ فيها؛ فقد كانت أسوارٌ مرتفعةٌ تحمي منها، ويخترقها جسرٌ ـ يمكن سحبُهُ ورفْعُهُ هو المدخل الوحيد إليه. وقد سُمّي الحصن «حصن الغُراب» لأنه يشرف بشكلٍ تهديدي ومباشر على الطريق المَلَكية، ولأنّ موقعه واستعداداته تجعلُ الاستيلاء عليه مستحيلاً تقريباً. وقد جرَّب صلاح الدِّين ذلك مرتين. ففي سنة 1173م جمع قواتِهِ كلَّها حول الحصن، ثم اضطر لسحبها بعد أيامٍ قليلةٍ على بدء الحصار. وحاول ثانيةً سنة 1184م. وكانت علة معاودته ما قاله كاتبه ومؤرّخ بلاطه بهاء الدِّين (ابن شداد)[1]: «كان على المسلمين منه (الحصن) ضررٌ عظيم. فإنه كان يقطعُ عن قَصْدِ مصر بحيث كانت القوافلُ لا يمكنها الخروج إلاَّ مع العساكر الجمّة الغفيرة. فاهتمَّ السلطان بأمره لتكون الطريق سابلةً إلىٰ مصر...». بيد أنّ هذه الحملة فشلت أيضاً؛ ولم تؤثِّر في شيءٍ إلاَّ في زيادة شهرة صلاح الدِّين، الذي قيل إنَّه رفع حصاره عن الحصن لأنه بلغه أنّ

(1) ابن شدّاد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، جمال الدين الشيّال، تحقيق جمال الدين الشيّال، ص 66.

احتفالاتٍ بعُرسٍ تجري فيه (فأراد أن لا يُزعجَ المحتفلين!). على أنّ صلاح الدِّين الشديد الانزعاج لهذه الخيبة سارع بالانسحاب إلىٰ دمشق مخرِّباً بلدة نابلس في طريقه، ولم يعد إلىٰ فلسطين بعد ذلك (حتى كانت وقعة حطين).

أدرك صلاح الدِّين جيداً الأهمية الاستراتيجية لحصن الكرك الذي كان يتصدرُ على الطريق بين جزأي مملكة السلطان الجديدة والمتكونة من مصر والشام. فما لم يمكن الاستيلاءُ على الحصن؛ فإنّ التنسيق بين قسمَي المملكة في أي حملةٍ على الصليبيين سيكون شديدَ الصعوبة. فقد كان هدفُ صلاح الدِّين الهجوم على الفرنجة من ناحيتي مصر والشام ودفع هؤلاء الكفرة بالتدريج نحو الشريط الساحلي وصولاً إلىٰ رميهم في البحر (ليعودوا من حيث أَتَوا). ومن أجل ذلك كلِّه فقد كان صاحب حصن الكرك أهمَّ لوردات المملكة الصليبية، في نظر صلاح الدِّين، كما في نظر الصليبيين أنفسهم.

في سنة 1187م كان حاكم الكرك هو ريجنالد دو شاتيّون Reginald de Châtillon. وكان ذلك الرجل مكروهاً أشدَّ الكُره من كلِّ مسلمي العالم. وشأنه في ذلك شأن أبناء النبلاء الثَواني، كان ريجنالد بدون إقطاعٍ أَو ثروة. وقد جاء إلىٰ الشرق في سنة 1147م مع الحملة الصليبية الثانية مغامراً، وباحثاً عن حظٍ وسلطة، وليس من أجل غاياتٍ روحية. لقد كان أحد صغار النبلاء من شمال فرنسا، ويملك طموحاتٍ كبيرة. وقد بدأ بحثه عن الحظ والثروة بإغواء أميرة أنطاكية المترملة حديثاً. كانت السيدة من أُسرةٍ ملكيةٍ حقاً، لكنها كانت مستهترةً وباحثةً عن المسرَّات. وهكذا نشب نزاعٌ من حولها لاختيارها الزواج بفارسٍ هو أدنى منها منزلة. فقد أزعج ذلك أهل أنطاكية، كما أزعج ملك القدس، وبطريرك أنطاكية. بيد أنّ سيّد أنطاكية، أكثر مدن المشرق ثراءً، سُرعان ما أنهى التحالف القائم ضدّه. فقد رفض بطريرك المدينة تمويل الحملة الصليبية على جزيرة قبرص التي كانت تحت الحكم البيزنطي. احتجز ريجنالد البطريرك،

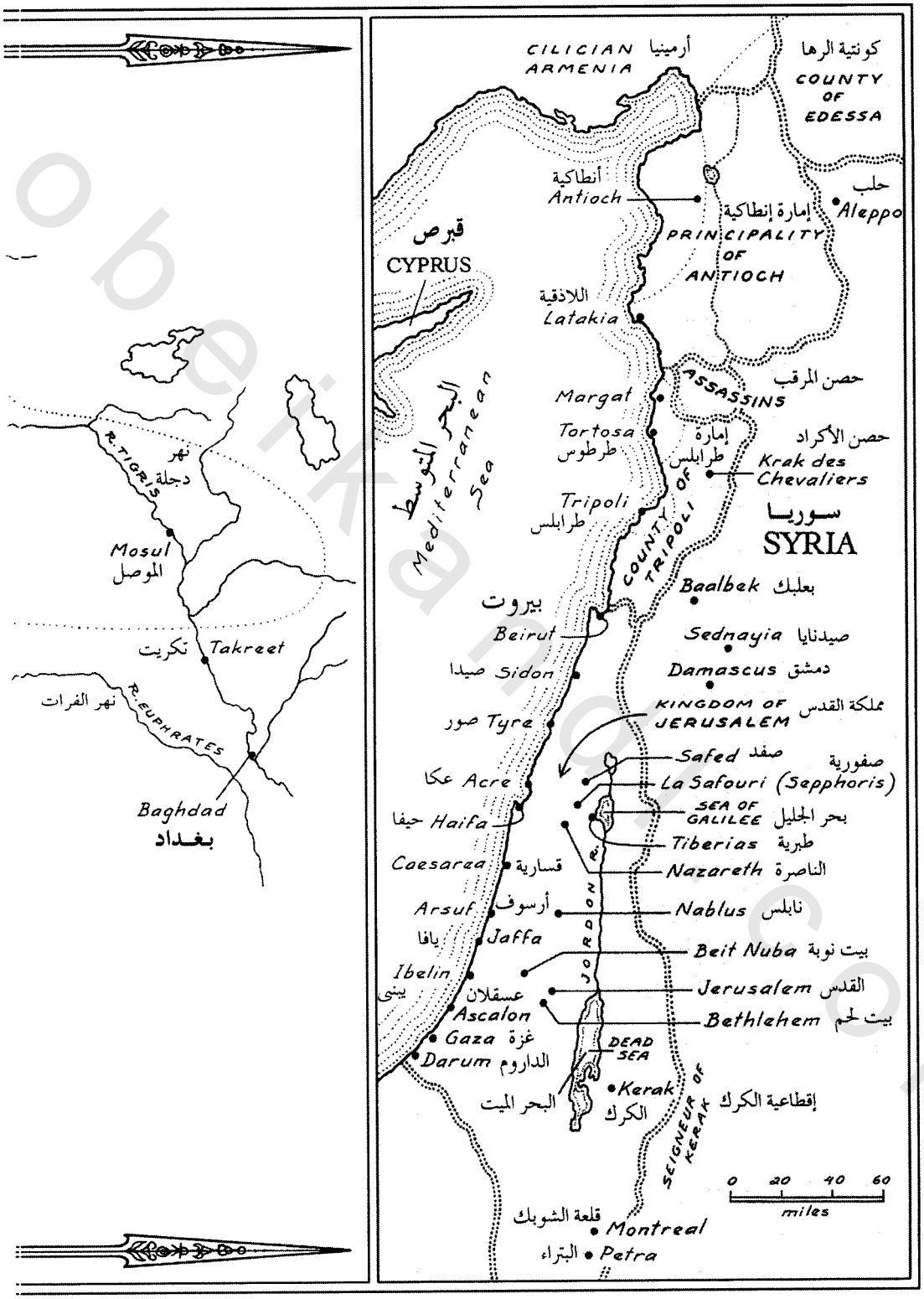
CILICIAN ARMENIA
أرمينيا
كونتية الرها
COUNTY OF EDESSA
أنطاكية
Antioch
حلب
Aleppo
إمارة إنطاكية
PRINCIPALITY OF ANTIOCH
قبرص
CYPRUS
اللاذقية
Latakia
البحر المتوسط
Mediterranean Sea
حصن المرقب
ASSASSINS
Margat
Tortosa
طرطوس
إمارة طرابلس
حصن الأكراد
Krak des Chevaliers
Tripoli
طرابلس
COUNTY OF TRIPOLI
سوريا
SYRIA
بيروت
Beirut
Baalbek بعلبك
Sednayia صيدنايا
Sidon صيدا
Damascus دمشق
KINGDOM OF JERUSALEM
مملكة القدس
Tyre صور
Safed صفد
صفورية
La Safouri (Sepphoris)
Acre عكا
SEA OF GALILEE
بحر الجليل
Haifa حيفا
Tiberias طبرية
Caesarea قيسارية
Nazareth الناصرة
JORDAN R.
Arsuf أرسوف
Nablus نابلس
يافا
Jaffa
Beit Nuba بيت نوبة
Ibelin
يبنى
Jerusalem القدس
عسقلان
Ascalon
Bethlehem بيت لحم
Gaza غزة
DEAD SEA
Darum الداروم
البحر الميت
Kerak
الكرك
إقطاعية الكرك
SEIGNEUR OF KERAK
0 20 40 60
miles
قلعة الشوبك
Montreal
البتراء
Petra
R. TIGRIS
نهر دجلة
Mosul
الموصل
نكريت
Takreet
R. EUPHRATES
نهر الفرات
Baghdad
بغداد

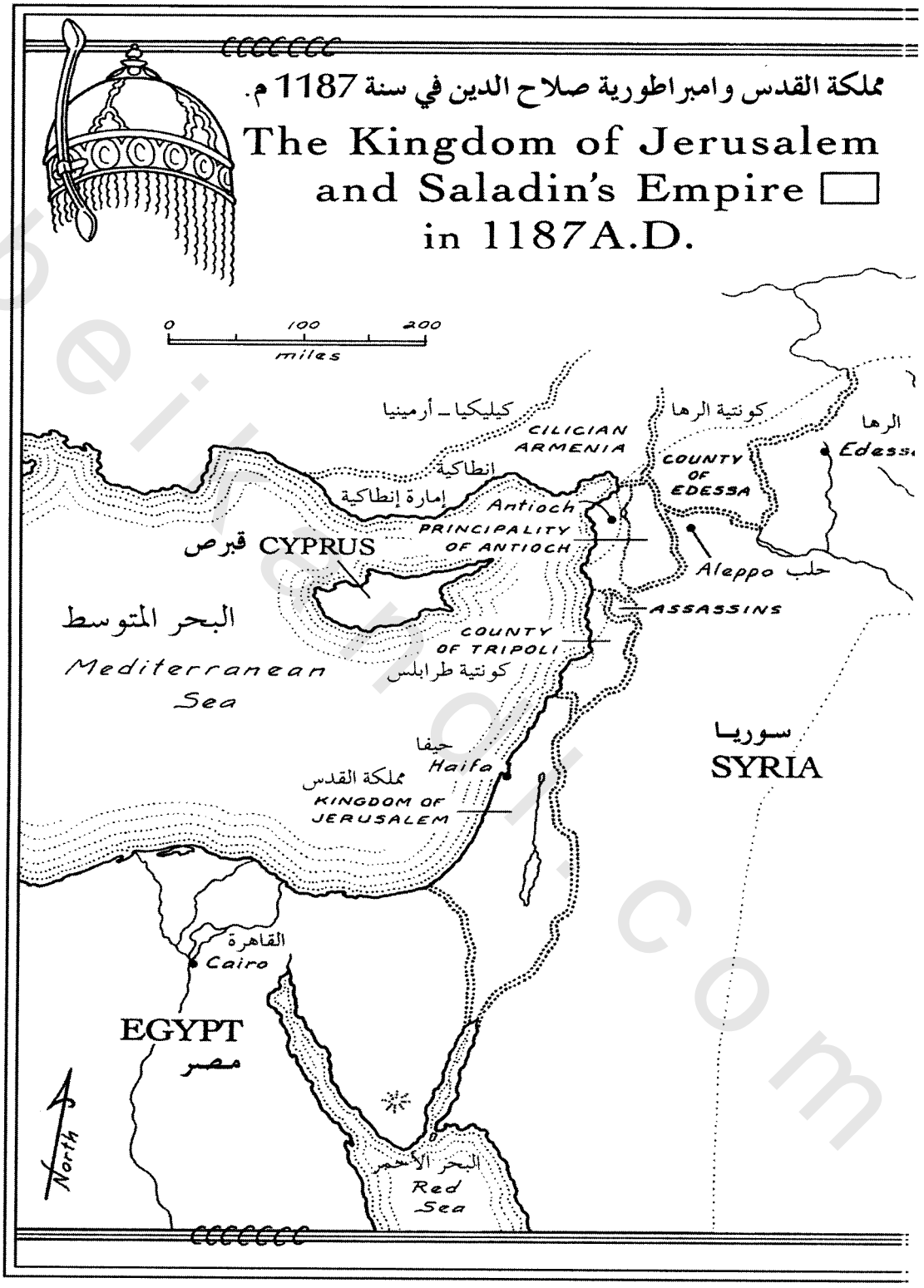
مملكة القدس وامبراطورية صلاح الدين في سنة 1187 م.
The Kingdom of Jerusalem and Saladin's Empire in 1187A.D.
0
100
200
miles
كيليكيا ـ أرمينيا
CILICIAN ARMENIA
كونتية الرها
COUNTY OF EDESSA
الرها
Edessa
انطاكية
إمارة إنطاكية
Antioch
PRINCIPALITY OF ANTIOCH
قبرص CYPRUS
Aleppo حلب
ASSASSINS
البحر المتوسط
Mediterranean Sea
COUNTY OF TRIPOLI
كونتية طرابلس
سوريا
SYRIA
حيفا
Haifa
مملكة القدس
KINGDOM OF JERUSALEM
القاهرة
Cairo
EGYPT
مصر
North
البحر الأحمر
Red Sea

وجرَّدهُ من ثيابه، ثم طلى جسده بالعسل ونصبه في الشمس (ليلتهمه الذباب وتنهشه الحشرات). وهكذا انهار البطريرك وفتح خزائنه إعداداً للغَزاة. وقد أخافت هذه الحادثة ملك القدس إلىٰ حدّ إرسال رسولٍ إلىٰ ريجنالد لتهدئته ومصالحته. وفي غزوة قبرص ذاتها ثبَّتَ ريجنالد شهرته بممارسة العنف البربريّ وغير المُسوَّغ. فقد أقبل هو وجنودُهُ على اغتصاب النساء، وتشويه أجساد الخصوم، ونهب سائر سكّان الجزيرة وتخريبها. وأخيراً، في سنة 1160م سقط هذا الرجُلُ المتوحِّش في كمينٍ لجنودٍ مسلمين عندما كان منهمكاً في سرقة الماشية، وأُلقيَ به في سجن قلعة حلب. وقضى ريجنالد في الأَسْر أربع عشرة سنة. لكنْ في سنة 1176م أُطلق سراحُهُ بعد أن دُفعت فديةٌ ضخمةٌ عنه قدْرُها اثنا عشر ألف دينار. وبدلاً من أن يُحس بإحساسات عرفان الجميل تُجاهَ آسريه ومُطلقيه؛ ازدادت كراهيتُه للمسلمين، وازداد حرصُهُ على إنزال الأذى بهم بمسوِّغٍ وبدون مسوِّغ. وكانت زوجتُهُ الأولى الأنطاكيَّة قد توفيت خلال وجودِهِ في الأَسر؛ فوجد في النبيلة ستيفاني Stephanie، وارثة إقطاعية الأردنّ، أرملةً أُخرى من هِبات الحظّ. وعن طريق الزواج بها حصل على حصني الكرك ومونتريال (الشوبك)، وبالتالي السيطرة على الإصبع الجنوبي من المملكة المسيحية، على الطريق إلىٰ العقبة والبحر الميّت.

انصرف هذا الفارس المجنون إلىٰ اصطناع إقطاعيةٍ مستقلّة في صحراء جلعاد. وكان أسلوبه في حكم الكرك مكروهاً بسبب قسْوتِهِ الوحشية. ويقالُ إنه كان يقطع رؤوس ضحاياه، ويضعُها في صندوقٍ خشبي، بحيث يُسْمَعُ وَقْعُها على الصخور عندما يرمي بها من أعلى القلعة. أمّا على خاتمه فقد كانت هناك صورةٌ للوحش الخُرافي المكوَّن من رأس نَسْرٍ وجسدِ أَسَد، مع نقشٍ يُطري فضيلة **التحضُّر!**. وبالنسبة لملوك القدس، فإنّ هذه الريحَ الوحشية كانت عصيّةً على الضبط والسيطرة. لكنّ ريجنالد، من ناحيةٍ أخرى، كان مشاركاً بقوةٍ في صراعات القوى بالقدس، ومتحالفاً مع الرهبانية العسكرية القوية هناك، رهبانية

فرسان الهيكل. وكان يشارك زملاءه الأوروبيين في معاركهم ضد المسلمين عندما يرى ذلك مُناسِباً. ففي هزيمة صلاح الدِّين الكبرى سنة 1177م في المستنقعات القريبة من تلَّة الصّافية[1]، كان إسهامُهُ بارزاً. بيد أنّ معاركه وخصوماته التي كان يقومُ بها على انفراد هي التي جذبت الانتباه إليه، وهي التي أكسبتْه على الخصوص عداوةَ صلاح الدِّين القاطعة. وقد أتى ريجنالد أكثر الأعمال إثارةً وشذوذاً في سنتي 1182 ـ 1183م. فقد قادته تصوراته السوداوية إلىٰ رسْم خطّةٍ لمهاجمة قلب الإسلام ـ المدينة ومكَّة، الأكثر قداسةً بين المدن في نظر المسلمين ـ متوعداً بتلطيخهما بالعار والشنار قبل تدميرهما. فقد تباهى بأنَّه يريد إخراج النبي محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم «سائق الجَمَل» من قبره! ثم إنه يريد أن يهدم الكعبة التي يتجه إليها المسلمون في صلواتهم، وحجرها الأسود المقدَّس، من الأساس.

في الكرك، انصرف شاتيّون لبناء أُسطولٍ من السفن الحربية. ثم حمل تلك السفن إلىٰ البحر الميت من أجل تجربتها. وبعد ذلك أعاد تفكيكَها من جديدٍ وحَمَلَها على الجمال مسافة مائةٍ وثلاثين ميلاً إلىٰ الجنوب من إيلات، إلىٰ جزيرة أيكة المكان الأقرب من ناحية الشمال إلىٰ البحر الأحمر والحجاز. هناك أعاد ريجنالد تركيب السفن، وأبحر بها في البحر الأحمر ناهباً ومدمِّراً القرى على الشاطئين المصري والحجازي. وقد أثار ذلك موجةً من الرعب والغضب في العالم الإسلامي، الذي بقي ردُّ فعله بطيئاً على أيّ حال. لكنْ أخيراً، وعلى بُعْدِ عدة أميالٍ وحسْب من المدينة، أمكن لأخي صلاح الدِّين وأتباعه من البدو، أن يُدركوا القراصنة ويهزموهم. أمّا شاتيّون فقد استطاع

(1) يسمّي المؤرخون تلك الوقعة «**وقعة الرملة**» (مفرج الكروب 2/ 58، وابن شدّاد: سيرة صلاح الدين، ص 53). ويسمّي ابن واصل (مفرج الكروب، ص 59) التلّ تل الصافية. ويصفه ابن شدّاد (ص 53) بأنه تل معروف بأرض الرملة دون تسمية. بينما يسميه هاملتون جب (صلاح الدين، تحرير يوسف ايبش، المؤسسة العربية، بيروت، 1973، ص 129): تل جزر. ويبدو أن المؤلف (رستون) أخذ التسمية من هناك لأن اسمه عنده Mont Gisard.

الهربَ دونما تأدٍّ عائداً إلىٰ مؤاب. وأمّا فرسانُهُ وأتباعُهُ فقد دُفعوا إلىٰ الوراء، وأُسروا، وأُخذوا إلىٰ القاهرة، حيث جرى قَطْعُ رؤوسِهِم. وبسبب هذا العمل المُشين والفظيع من جانب شاتيُون نَذَرَ صلاحُ الدِّين أن يقبض على ريجنالد، وأن يقطع رأسَهُ بيده. هكذا صار صاحبُ الكرك شُغْلَ السلطان الشاغل. وقد قضى السنتين التاليتين محاولاً أن يُزيلَ هذا التهديد. وفي الوقت نفسه فإنّ خليفةَ بغداد أصرّ على انتقاد السلطان لأنه لم يستطع حمايةَ طريق الحج إلىٰ مكّة. وقد آلم ذلك صلاح الدِّين. ولذلك فإنَّه في جوابه الدفاعي حاول تغييرَ الموضوع، ولفْتَ الانتبَاه إلىٰ أحداث تمردٍ ضدّه في بلاد ما بين النهرين: «**لقد أدهشَنا** أنه عندما كنّا ندفعُ عن قبر النبي سلامُ الله عليه، وكنا منصرفين تماماً لذلك؛ فإنّ صاحب الموصل كان يُنكرُ علينا ما هو من حقّنا من البلاد، ويحاول أخْذَها بدون حق..». بيد أنّ غارة صلاح الدِّين على الكرك بعد سنتين كانت فشلاً أيضاً. لذلك فقد عاد إلىٰ دمشق، وبعث رُسُلاً للتفاوض مع الخصوم المسيحيين على هدنة: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ...﴾ [سورة الأنفال: 61]، هكذا نصح القرآن. وبذلك فقد اضْطُرّ السلطان لانتظار فرصةٍ أُخرى، واستفزازٍ آخرَ. وما كان عليه أن ينتظرَ طويلاً.

II

القافلة

مع آخِر ضربة طبلٍ لأمير القافلة، في ذلك الشتاء من سنة 583هـ/ 1187م خرجت الجِمال المحمَّلة والمثْقَلَة، في قافلةٍ طويلةٍ من القاهرة باتجاه دمشق على الطريق القديمة عبر شرق الأردن. وكانت القافلة تحمل ذخائر وسلعاً ثمينةً كثيرة: حرير فاخر، ومصنوعات معدنية بمحفوراتٍ ورسومٍ رائعة، وخزفيات، وأفاوية وتوابل، ومقادير من الذهب والفضة. ولأنه كانت هناك بين

صلاح الدِّين وملك المسيحيين بالقدس، معاهدة انعقدت قبل سنين؛ فقد كان معروفاً أنه يمكن الاطمئنان لمرور القوافل بطريق الأردنّ. ولذلك فقد رأى أمير القافلة أنّه لا حاجةَ، في الحقيقة، للحراسة الكثيفة والقوية، على الرغم من أنّ القافلة كانت فيها شخصيةٌ مهمة: أخت صلاح الدِّين!

عبرت القافلة صحراء سيناء إلىٰ جنوب البحر الميّت على طول الطريق الذي اجتازه (النبي) موسى بعد أن عبر البحر الأحمر. وكان الركْبُ يسري ليلاً على ضوء المشاعل التي يحملُها المُشاة. ووصلت الجماعة إلىٰ الرقيم المذكور في القرآن باعتباره يتضمن الكهف الذي أوى إليه النيامُ السبعة. ثم جرت متابعةُ السير والسُرى مروراً بالمدينة النبطية القديمة والرائعة المعروفة بالبتراء. ويقال إنه في هذا الموضع ضرب موسى بعصاه الصخر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً. وفي هذا المكان بالذات أخلد الركْب للراحة لبضعة أيام.

في البتراء واجه المصريون أول حصنٍ من تلك السلسلة من قلاع الفرنجة الحصينة، والتي تمتد من البحر الأحمر إلىٰ شمال سورية. كانت قلعة البتراء الصليبية تشرف على الطريق التجارية المارّة بالبتراء حيث كان التجار العرب يتجمعون ويستريحون في تلك الكهوف المنحوتة في الصخور الرملية السمراء، وحيث تقوم تلك العقود الرائعة والمعابد والأضرحة، من آثار حضارةٍ مفقودةٍ، تحضنهم وتظلّلهم. كان الصليبيون يمتلكون هناك قلعةً صغيرةً ومنارةً للاستماع والمراقبة على تلةٍ مرتفعةٍ تُسمَّى «**الحبيس**». وعلى مبعدة ميلٍ من البتراء كان هناك حصنٌ أكبر يسمّى «**الوعيرة**»، يشرف على الوادي الذي يسمّيه العرب وادي موسى. وكان ذلك الحصن هو الثكنة الرئيسية في المنطقة، وتعسكر فيه حاميةٌ قويةٌ من فرسان الهيكل. وازدادت القافلة المصرية اغتباطاً بمغادرة البتراء ومُجاوزة حصن الوعيرة بدون مقاطعة أَو حادث؛ فانطلقوا سائرين في طريق الحجّ القديمة التي يعرفونها جيداً. كان هَذا القسم من طريق الحج الأسطوري الممتد بين دمشق ومكة معروفاً أيضاً من قديم الزمان بالطريق الملكية. فقد

سمّاه (النبي) موسى بذلك عندما كان يتفاوض مع الأدوميين عبثاً ليمكّنوهُ من المرور في طريقه إلىٰ الأرض الموعودة. قال موسى: «سنمضي في جادّة الملك؛ ولن نلتفت يميناً ولا يساراً إلىٰ أن نُجاوزَ تخومَكم». بيد أنّ الأدوميين لم يتزحزحوا عن موقفهم. وهكذا حُبس هناك لمدة أربعين سنة. ومضت القافلة لمسافة ثلاثين ميلاً إلىٰ الشمال مجتازةً بالحقول الغنية بالحبوب والزيتون والعنب، التي تتوِّجُها «**قلعة الشوبك**»، التي كان الأوروبيون يسمونها «**مونتريال**». وكانت تلك القلعة أكثر ضخامةً من الوعيرة، وقد استولى عليها بلدوين الأول عندما كان يبسط سيطرة الحملة الصليبية الأولى، ويؤسِّس للسلالة الأوروبية في الأراضي المقدَّسة. وهكذا أُضيفت القلعة إلىٰ الممتلكات المسيحية في سنة 1115م.

سارت القافلةُ بدون اعتراضٍ أَو إزعاج مروراً بقلعة الشوبك أيضاً. وعبرت وادي الحسا الذي كان يشكّل الحدود الفاصلةَ بين مملكتي أدوم ومؤاب القديمتين. ثم دخلت برية مؤاب حيث قضى موسى وقومه أربعين سنة ينتظرون دخول الأرض المقدَّسة. ومن هناك لناحية الغرب في الأفق المتوهج يقع البحر الميت، البحيرة القذرة، كما يسميه العرب، وبحيرة سدوم وعمورة؛ حيث لا يسبحُ فيه كائنٌ حيٌّ، ولا يستطيع طيرٌ أن يحلِّق فوقه.

أخيراً وصلت القافلة إلىٰ ناحية الكرك الخطِرة. وقد كان حجمُ الحصن هناك أربعة أضعاف حجم حصن الشوبك؛ ومُشرِف على جادة القوافل بطريقةٍ مهدِّدة. وهناك في ظلال الحصن، وعلى طريق الحج، هُوجمت القافلة من جانب الفارس الأسود، وأُخذت الجمال والمواشي، وقُتل الحراس، وأُخذ جميع المسافرين أسرى ـ بمن فيهم أخت صلاح الدِّين ـ، وجُلبوا إلىٰ حصن الغراب. وعندما احتجّ الأسرى على خرق اتفاقية الهدنة، صرخ شاتيّون في وجوههم: دعوا محمَّداً يأتي فيخلِّصكم! ووصل الخبر إلىٰ صلاح الدِّين مع العبارة الشنيعة التي قالها شاتيّون، فتحوّل غضبه إلىٰ عزيمةٍ وتصميم. ولجأ هذه

المرة أيضاً إلىٰ مصحفه: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [سورة الأنفال: 60]. لقد هاجم الصليبيون بلاده، وقطعوا طريق الحج إلىٰ مكة. والآن قام هذا المجنون بالكرك بأسر أخته، وأهان نبيّه. أرسل صلاح الدِّين رسالةً إلىٰ شاتيون قال له فيها: «أين العهود والمواثيق؛ أعِدْ ما أخذْتَه!». لكنّ شاتيّون نحَّى الرسالةَ بغضب. وهكذا جدَّد السلطان وعده ونذره أنَّه إذا مكّنه الله سبحانه من هذا الشرير فإنه سيقتله بيديه. وبعث السلطان رسولاً أيضاً إلىٰ ملك القدس المتوّج حديثاً محتجاً وغاضباً: ذكّره السلطان بالعهد والهدنة التي انعقدت مع سَلَفِه. وطلب إعادة القافلة وما فيها من متاع وثروات، وإطلاق سراح الأسرى. ولقي السلطان إجابةً مُرْضية؛ فتصرف شاتيّون صدم الملكَ الجديد، وهو يريد من شاتيّون التعويض والاعتذار. لكنّ شاتيّون رفض تسليم غنائمه. فقد أجاب على تلك المطالبات بالقول: «كما هو سيد بلاده، فكذلك أنا سيّد بلادي. ولا عهدَ بيني وبين العرب». وبذلك فإنه بعملٍ فرديٍ كهذا، انقسمت المملكة الضعيفة إلىٰ شطرين، واشتدَّ غضب السلطان القوي.

رفعت فظاعة شاتيّون الأخيرة من سمعة صلاح الدِّين في سائر أنحاء مملكته ودعمت حقّه في الردّ على العدوان الذي وقع عليه. فقد جاء في القرآن: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأنفال: 62].

وبدأت تداعياتُ ذاك الحدث تتوالى.